المجمع الديني في مستوطنة تل خزنة I شمال شرقي سورية

رؤوف منشاييف ـ نيقولاي ميربرت

تعريب: هالة مصطفى

منذ عام ١٩٨٨ تقوم بعثة أكاديمية العلوم الروسية بتنقيبات واسعة النطاق في مستوطنة تل خزنة I ذات السويات المتعددة، والواقعة على بعد ٢٥ كم شمال شرقي مدينة الحسكة، على الضفة اليسرى لوادي رجلة، يبلغ قطر التل ١٥٠م وسطياً وارتفاعه ١٧٫٢م. يعود الجزء الرئيسي للسوية الأثرية (أكثر من ١٤م) لعهود السلالات المبكرة (السلالات من I إلى III، الألف الثالث ق.م.). أما الجزء الأدنى والأصغر (٣م)، فيرجع للحضارتين الأوروكية والعبيدية (الألف الرابع). أعظم مكونات التل شأناً هو مجمع المعبد الذي يتألف من نسق من الإنشاءات الضخمة التي حفظت بارتفاع لا بأس به. في طليعة أبنية هذا المجمع برج مستطيل الشكل في المخطط بقي بارتفاع ٨أمتار، في داخله تجويف عميق شبيه باسطوانة العمود. ويرتبط بالبرج عدد من الحجرات والأفنية ويسور هذا الحرم جدار ضخم فيه أنصاف أعمدة جدارية، كما هو مألوف في بناء معابد بلاد الرافدين القديمة، وهنالك مايدعو للإعتقاد بأن المكان ـ قيد البحث برمته ـ لم يكن ذا طابع مديني بل ديني. ويؤكد ذلك وجود المباني الشعائرية وفي داخلها مذابح من الطوب، ثم الغياب الكامل لآثار الأواني المنزلية النموذجية. ويتيح لنا ترتيب الهياكل المعمارية المتزامنة في السويات المختلفة أن ندرج معبد تل خزنة «I» في عداد مايسمى «المعابد العالية» التي تقام فوق عدد من المنصات الاصطناعية المتعاقبة. ويمكن اعتباره أقصى معبد في الشمال، وأحد أولى المعابد من هذا الطراز، وهو يوسع رقعة «المعابد العالية» باتجاه شمال شرقي سورية.

ظلت عمليات التمدن وتشكل بنى الدولة والحضارة ومن ضمنها ظهور مراكز دينية خاصة ـ إلى عهد قريب ـ تُدْرس على ضوء معطيات وادي الرافدين الأدنى والأوسط. أما الآن فقد تغير الموقف، وبوسع المرء حالياً أن يؤكد أن العمليات الآنفة الذكر قد شملت رقعة أوسع من ضمنها شمال شرقي سورية: تلك البقعة التي تتميز بالتمركز المذهل للمواقع العائدة للألفين الرابع والثالث ق.م، ذات السويات شديدة الثراء بالحقائق والمعلومات من عصري فجر السلالات وأوروك المبكر. هذا التمركز من الصعب أن نجده في وادي الرافدين الأدنى والأوسط، وهو بلا شك، مرتبط بخاصيةٍ ديناميكيةٍ نوعية للعملية الثقافية التاريخية في منطقة شمال شرقي سورية، التي من خلالها تواصلت المراكز الرئيسية في بلاد الرافدين مع إقليمي شرق المتوسط والأناضول. لذلك، كان من الطبيعي أن تجذب هذه المواقع، بمختلف مراحلها اهتمام البعثة الآثارية التي تقوم بالأبحاث في تلك المنطقة الآن. والكثير من هذه المواقع أعطت ثماراً رائعة. يكفي للدلالة على ذلك، أن نشير إلى تل براك بمجمعي معبده وقصره العائدين لعهود فجر السلالات والعهود الأكدية،

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

أو إلى ثراء أرشيف تل ليلان ، أو إلى مجمع قصر تل كشكشوك الرائع من فجر السلالات . . . . الخ . وتظل حفريات تل خزنة «I» الجارية منذ العام ١٩٨٨ هي الأهم (ر.م. منشاييف، ن.ي . ميربرت؛ ن.و. بدر ١٩٩٠؛ ر.م.منشاييف؛ ن.ي. ميربرت؛ ن.و. بدر١٩٩٣؛ ر.ن. منشاييف، ن.ي. ميربرت ١٩٩٤).

تل خزنة «I» مستوطنة متعددة السويات، يقع على بعد ٢٥كم شمال شرقي الحسكة، على الضفة اليمنى لوادي «رجلة»، ويبعد ١م «I» شمالي تل خزنة «٢»، الذي سنخصص له مقالنا الثاني. يبلغ متوسط قطر التل ١٥٠م، وارتفاعه١٧,٢م، ويرجع القسم الأعظم من سوياته الأثرية إلى عصور فجر السلالات الممتدة من بداية الألف الثالثة حتى ربعها الأخير. أما المستوى العائد للثقافة الأوروكية والعبيدية (نهاية الألف الخامس إلى نهاية الألف الرابع ق.م)، فهي ضئيلة السماكة (لاتزيد على ثلاثة أمتار)، وتحتها طبقة مختلطة اكتشفت داخلها قواعد هياكل المعبد الرئيسي.

اكتشفت شبكة أبنية متعددة لمجمع يعود إلى الألف الثالث في الجزء الجنوبي من التل. ربط معظمها وفق المخطط العام واتسم مكانها بوجود منصات اصطناعية متعاقبة - مصاطب متدرجة وفق تركيبة المكان المدرجة.

ترتبط كل مصطبة من هذه المصاطب بمجموعة من المباني، إلا أن المصاطب الأحدث تخص مجمع المعبد الوحيد. هذه الحقيقة توضح الهوية الفعلية للمواد المكتشفة في القطاع كله (فخاريات بشكل رئيسي) رغم الفروق الجوهرية في سوياتها. تم تعيين مالايقل عن أربع مصاطب من هذا النوع على الأعماق ١,٥م و٢,٥م و٩,٦م (مازال كشف المنصة الأعلى فوق التل في بدايته). عثر فوق المصاطب المختلفة على المباني الأساسية، ومعها الأبراج الضخمة المصمتة المحتوية على أعمدة نصفية من نفس النموذج المألوف في هندسة بناء معابد بلاد الرافدين القديمة. هذا وقد رصفت أسطح المصاطب الأحدث مع أسطح المنحدرات القائمة بينها بالحجارة. تسمح هذه الدلائل بإدراج هذه المنشأة المعمارية في عداد مايسمى «المعبد العالي» الطراز النموذجي المميز لهندسة المنشآت الدينية ذات التركيبة المدرجة للموقع في بلاد الرافدين. كان هذا النموذج معروفاً - حتى الآن - في وادي الرافدين الأوسط والأدنى بالدرجة الأولى (ب ديلوغار ١٩٤٠، هـ.لنزن ١٩٥٥، س. للويد ١٩٧٨، و. تونكا ١٩٨٤). ومن هنا تأتي الأهمية الخاصة لاكتشافه لأول مرة في تل خزنة «I» في شمال شرقي سورية.

تضم المنصة السفلى سوراً مصمتاً بسماكة ٤م تقريباً، يبدو أنه دفاعي، إذ أنه مشيد من طبقات متراصة من اللبن والتراب ومطلي بالطين من الجانبين.

يمكن اقتفاء أثر هذا الجدار لمسافة تزيد على ثلاثين متراً، ومازال بعض أجزائه قائمة حتى ارتفاع ١,٦٠م، محيطاً بمجمع المعبد الذي يؤلف مجموعة الأبنية الأساسية. يتبع لهذا السور برج ضخم (N37) الشكل ١١ -ربما زقورة (؟) قائم بارتفاع ٨أمتار حتى الآن، وهو مشيد باللبن، ولأعلاه مسقط محيطي خارجي ٥×٤,٦م. يتداخل جدار المعبد السفلي ذو أنصاف الأعمدة الجدارية مع هذا البرج المرتبط بمجموعة الهياكل التي تشكل بالنسبة لها مركزاً معمارياً من نوع ما. دُرست سلسلة الحجيرات العمودية المتتالية القائمة داخل البرج التي فصلتها عن بعضها البعض، أرضيات مرصوفة بالطوب والحجارة. ووصل عمق هذا الهيكل إلى ستة أمتار حتى الآن (من أعلى البرج)، إلا أن الأرضية السفلى لم تكشف بعد. في الحجرة العليا وجدت الأفازير الحاملة للسقف، ومدخلها كان من الأعلى عند القمة. ولإحدى حجرات البرج السفلية مدخل يفضي إلى الفناء. والذي كان سطحه المرصوف بالحجارة أعلى من مستوى أساسات البرج ٣٧ بثلاثة أمتار ونصف.

توضعت طبقات كثيفة من الرماد على أرضيات الحجرات داخل البرج ٣٧. اكتشفت بينها بقايا الحبوب وعظام الحيوانات ولقى أخرى ليست بالكثيرة؛ كنصال المناجل ومقابض المجارش اليدوية والمطاحن وكسر الأواني والتماثيل الصغيرة للحيوانات المختلفة. لم تنته الأبحاث المتعلقة بهذه اللقى المدهشة بعد، مع ذلك لدينا مايدعو للاعتقاد بأن المكان استخدم كمبنى مقدس.

لإحدى القطع الرائعة أهميتها الخاصة في إثبات هذا الرأي. ففي الكوى الطولانية (النوافذ) من الجهة الجنوبية الخارجية في القسم العلوي للبرج دفنت مجموعة نصال

المناجل، بلغت ١٧ نصلاً (الشكل ٢)، وختم مستطيل (الشكل ٣) من الحجر الأبيض (حجر كلسي رخامي)، وعلى إحدى الأرضيات نقشت صورة لأسد وحيوان من ذوات الحوافر نقشاً غائراً في مشهد يرجح أنه مشهد تعذيب. للختم المستطيل صلة وثيقة بفن النقش على المجوهرات في السويات الأوروكية المتأخرة في تل براك وتبة غورا (M. EL.Mallowan, 1947, pl. XVIII28; XIX; 14; XX : 25,34, 36; A.J. Tobler 1950, pl.CLXVIII, 156)

إن السمة الطقسية لهذه القطعة جلية، وهي مرتبطة بالخاصية الوظيفية للبرج ٣٧ التي أشرنا إليها آنفاً. لكن هذه الوظيفة لاتعني استبعاد إمكانية استثمار منشآت كهذه المنشآت استثماراً عملياً، كمخازن للحبوب مثلاً. تؤكد على هذا الضرب من الاستثمار البيانات الموجودة على الأختام الاسطوانية الرافدية العائدة للألف الثالث قبل الميلاد. إن اقتران الديانة بالممارسة الزراعية يبدو هنا طبيعياً بشكل مطلق.

يقوم البرج ٣٧ على ركيزة أو منصة ارتفاعها ١,٧م، بنيت من آجر كبير الحجم، وقد بقيت دون طلي. لكن جدران البرج الخارجية وجزئياً الداخلية، فقد تم اكساؤها بطبقة مجدولة من الجص الأخضر والبني.

فوق المنصتين السفلية والثانية عدد من الحجرات والأفنية مرتبطة بالبرج، وإلى الشرق ينطلق سور مصمت فيه أنصاف أعمدة جدارية، وارتفاعه ٦ أمتار، محيطاً بحرم المعبد من الجنوب والشرق، ومن الجهة المقابلة وعلى مستوى المنصة الأولي أبنية ضخمة مرتبطة بالبرج ٣٧، اكتشف داخل إحداها المذبح المبني من الآجر، والتنور نصف الاسطواني الذي توضعت إلى الشرق منه بقليل، خلف سور المعبد تماماً منشأة أخرى ضخمة برجية الشكل N110، وهي على صلة وثيقة بالبرج ٣٧ سواء من حيث الشكل أو الأبعاد. فالمبنيان كلاهما ينتميان لمستوى البناء الأولي الذي يرتكز عليه مجمع المعبد (حوالي ١٤م تحت قمة التل)، ويستندان على قطع ضخمة ناتئة تحت الجدران مصنوعة من آجر كبير الحجم (٦٠×٦٠) والبرجان أيضاً مطليان بطبقة مجدولة من الجص الأخضر والبني. ثم تحديد حجرتين داخل البرج ١١٠، متوسط بعديهما في المستوى العلوي هو ٢×٢,٥م. لكنهما وسعتا بشكل له دلالته أثناء عملية التعميق. لكن تقليل عرض الحجرة عند السقف جعل من الممكن أن نفترض أن البناء ١١٠ استخدم بادئ الأمر كمخزن للحبوب.

تمتد المباني الضخمة ذات الصبغة الدينية والاقتصادية حتى الطرف الشرقي للموقع. وفي الجهة المقابلة لابد من ذكر المباني المتلاصقة التي ترسم التخوم الغربية للمستوطنة، حيث اكتشفت منازل تأسر بجلالها ومهابتها، وبقيت جدرانها قائمة بارتفاع ٦م حتى الآن.

شمال البرج ٣٧ تبرز للعيان مباني المنصة الثانية (متوسط السوية ١١م). هنالك فناءان كبيران تسورهما الجدران وحرم صغير مرتبط بالبرج بقي بارتفاعه الكامل (حوالي ٣م)، وفي داخله أقيم مذبح مستطيل من الآجر، وقد ألحقت مباني المنصة الثانية هذه بالمباني المرتبطة مباشرة بالبرج ٣٧. وتدعى مبدئياً «المعبد الأقدم». وعلى المنصة التالية (متوسط السوية ٩,٥م) أقيمت الشبكة الثانية المماثلة وهي، دون شك، مرتبطة «بالمعبد الأقدم» لكنها في الوقت نفسه تمتلك ميزات الوحدة المعمارية المستقلة، وهي لهذا السبب تدعى «المعبد الأحدث»، الذي يكرر بعض سمات ومكونات «المعبد الأقدم»، لكن بصورة مصغرة. هنالك في مركز الشبكة المعمارية شيد البرج ٢٤، وهو صورة مصغرة عن البرج ٣٧ وعلى نفس محوره الأفقي. ولكل المباني الأخرى صفة دينية أو اقتصادية، وقد ألحقت جميعها بالمجمع المتصل بالبرج المركزي والمسور بجدار قائم حتى الآن بارتفاع ٥م، وبه أنصاف أعمدة جدارية من النوع نفسه الموجودة في «المعبد الأقدم».

إن أنقاض المباني البارزة فوق التل برهان قاطع على وجود منصة أو منصتين أخريين، لكن شبكة من الحجرات الصغيرة بشكل عام بينها ممرات ضيقة أقيمت في وقت لاحق فوق السفوح العليا للتل وغطت الأنقاض السابقة، ومازال التنقيبات في هذه المنطقة العليا في بدايتها. مع ذلك لابد من التنويه ومنذ الآن بان تخطيط ذلك الجانب قد حددته سلفاً الجدران الرئيسية السميكة التي قطعت، وفي نفس الوقت دعمت مجموعات الأبنية المنفصلة. تتميز هذه المجمعات بكون القسم الرئيسي من حجراتها لايحتوي على

أية بقايا منزلية نموذجية، وحتى التنانير والمواقد المعزولة لم تكن منزلية بقدر ماهي مرتبطة بممارسات طقسية. أزيلت من بعض الحجرات أكوام كبيرة من عظام الحيوانات، لكن المهم هو اكتشاف بقايا إنسانية لها، دون شك، صلة بعمليات دفن متعمدة. فالهياكل العظمية للراشدين قد سجيت على فرش وبجانبها حاجيات في متناول اليد: آنية وأدوات وأسلحة برونزية والمئات من خرز الكوارتز والعقيق الأحمر بالإضافة إلى بقايا حيوانية. أما دفن الأطفال فكان يجري في أضرحة وأوعية فخارية دفنت في أرضية الحجرات.

نذكر بهذا الخصوص إحدى الحجرات الصغيرة (ارتفاع ٢م) كانت مليئة بالرماد وعلى أرضيتها ضريح طفل وأكثر من أربعين تمثالاً صغيراً من الفخار لحيوانات مختلفة.

ماذكر آنفاً يعطي القطاعات المرتبطة بالمعبد ميزات خاصة ويتيح لنا أن نفترض أنها كجزء من الهيكل المقدس المتصل بالمعبد. وهنالك أسس للاعتقاد أن الصرح قيد البحث برمته لم يكن ذا صبغة مدنية بل دينية. وهذا ماتؤكده بقايا الأبنية الشعائرية في المصاطب العليا، حيث مايزال البحث في بدايته.

ولنعد إلى معبد تل خزنة، ولنشر ثانية إلى إمكانية درجه في عداد مايسمى «المعابد العالية» لأنها بالمقارنة مع «معابد سوية الأرض» قد أقيمت على منصة أو عدد من المنصات الاصطناعية المتعاقبة. إن لتقاليد هذا النوع من المعابد جذوراً راسخة في بلاد الرافدين، فقد ظهرت سابقاتها بشكلها المتطور في عصري الوركاء وجمدت نصر، ولها صلة وثيقة بأشكال الزقورات والهياكل التي شيدوها. علاوة على الأمثلة النموذجية الأصلية في الوركاء (المعبد الأبيض...الخ) يمكن بهذا السياق أن نذكر المعبد I في أريدو (عصر فجر الكتابة) الذي يعتبر واحداً من الأمثلة النموذجية لمباني المصاطب التي استمرت زمناً طويلاً. ولئن كان معبد أريدو أبعد النماذج من جهة الجنوب فإن مجمع تل خزنة يمكن اعتباره النموذج الأبعد إلى الشمال، بل ويرسم حدود «المعابد العالية» في شمال شرقي سورية. علينا في الوقت نفسه أن نشير إلى أن تأسيس المعبد في تل خزنة I ربما يعود بتاريخه إلى عصر أوروك أيضاً. كما أن الوظائف التي كان يؤديها أثناء مرحلة السلالات الأولى تشهد على عظمة الفترة التاريخية التي وجد فيها.

النظير الأقرب لمجمع تل خزنة I «المعبد البيضوي» في الخفجة - ديالا. ويبدو تماثلهما جلياً في كثير من المعايير الجوهرية. يشهد هذا التشابه الصارخ في التقاليد المعمارية على التواصل المستمر والخلاق بين مختلف أقاليم وادي الرافدين، وهو الذي حدد المستوى الرفيع لوحدتها الثقافية خلال الألف الثالثة قبل الميلاد. لكن هذا الانسجام التام لايمكن فهمه بالتعويل كثيراً على مقولة أنه جاء نتيجة لانتشار المنجزات الثقافية لوادي الرافدين الجنوبي والأوسط باتجاه الشمال، في أعالي الرافدين والإقليم السوري، وقد أصبحت هذه الأفكار التي كانت تعتبر تل خزنه ١ مقاطعة بعيدة عن مركز الثقافة في الشرق الأدنى، في ذمة الماضي. أما الآن فيتجلى شيئاً فشيئاً تعقد وتنوع عملية تشكل ذلك المركز والدور المميز في هذه العملية لكل إقليم من الأقاليم التي ذكرناها آنفاً، وذلك من خلال توازيها في عملية التطور خلال عدة آلاف من السنيين بدءاً من ظهور أقدم المواقع الزراعية إلى تشكل المدن والمحاولات الأولى لتشكيل الدول العظيمة.